كاترينا الثانية واصلاحها

لما كانت هذه الامبراطورة في مقتبل العمر التفّ حولها كثيرون من الاعوان الذين لا تحسد سيرتهم مثل اولاد اورلوف و بوتمكين فخدموها خدمةً نصوحاً واغدقت هي عليهم الخيرات ويقال انها اعطت اولاد اورلوف خمسة واربعين الفاً من الفلاحين الارقاء وما يساوي عشرة ملايين من الجنيهات وذلك من سنة ١٧٦٢ الى سنة ١٧٨٣ ومنحت بوتمكين في سنتين ٣٧ الفاً من الارقاء وما يساوي مليوناً و ٣٥٠ الفاً من الجنيهات حتى بلغ دخلهُ في السنة ستين الف جنيه . ويقال انهُ اوقد مرة من الشموع في وليمة من ولائمهِ ما ثمنهُ عشرة آلاف جنيه. وبعث باقدر رجالها في السياسة سفراء الى حكومات اوربا مثل سيمن فورنتسوف الذي كان سفيرها في لندن ودمتري غالتسوين الذي كان سفيرها في باريس و بدبرج الذي كان سفيرها في ستكهلم

ومن اعمالها المشهورة انها جمعت نواب البلاد من كل الطبقات والفت منهم مجلساً تشريعياً لسن القوانين فبلغ عددهم ٦٥٢ نائباً وكانوا يمثلون رجال الحكومة وامراء البلاد وسكان المدن والارياف وقبائل التتار والقلموق واللاب وغيرهم من كل طائفة ومذهب . واعطت كلاً منهم وساماً عليهِ شعارها وعبارة معناها « لخير الكل اجماعاً وافراداً » وجعلتهم بحيث لا ينالهم القانون بعقاب مدة اجتماعهم ولا يحل بهم عقاب بدني ابداً . والظاهر انها كانت تختار القوانين من كتب علماء الاوربيين وحكمائهم وتعرضها مع هذا المجلس حتى يصادق عليها و يجعلها من قوانين البلاد

ومن الاقوال المأثورة التي تنسب اليها قولها ان الامة ليست لملكها ولكن الملك لامتهِ . المساواة انما تقوم بطاعة الشعب للقوانين . الحرية هي ان يباح لكل احد ان يعمل ما لا يحرّمهُ القانون الافضل . ان ينجو من العقاب عشرة مجرمين من ان يعاقب بريء واحد . التعذيب يجعل الضعيف يعترف بالذنب ولو كان بريئاً منهُ والقوي ينجو من العقاب ولو كان مذنباً . ونحو ذلك من جوامع الكلم التي تشجب الاضطهاد الديني والعقاب البدني

وجلس هذا المجلس اكثر من مئتي جلسة واقام لجاناً كثيرة لدرس المسائل الادارية ونحوها وكان اعضاؤهُ يتناظرون علانية في اهم المواضيع واكثرها تضييقاً لسلطة الحكام فبحثوا في كل المسائل الاقتصادية وطلبوا ان يباح حق الانتخاب للفلاحين. ثم نشبت الحرب

بين روسيا والبلاد العثمانية فاضطرت الامبراطورة ان تحل المجلس فحلتهُ وهي تقول انها عرفت من مباحثهِ مطالب تملكتها وما يجب ان تفعلهُ لها

ومن المباحث التي بحث فيها ذلك المجلس تحرير الفلاحين المستعبدين. افتتح باب البحث فيهِ النائب كوروبين وهو من الاشراف فاشار بان ينزع حق الملاَّك من امتلاك الفلاحين ولا يبقى لهم الاَّ الاشراف عليهم. فاجابهُ نائب آخر انهُ اذا كان غرض الامبراطور تحرير هؤلاء العبيد فلا يحسن تحريرهم دفعة واحدة بل تدريجاً. فاشارت الجمعية الاقتصادية ان تطرح هذه المسألة على بساط البحث في اوربا كلها ويطلب من مهرة الكتَّاب ان يؤلفوا الرسائل فيها وتعطى جائزة لمن تفضل رسالتهُ غيرها. فاعطيت الجائزة لرسالة فرنسوية توجب تحرير العبيد. لكن اشراف المملكة لم يسهل عليهم ان يتنازلوا عن حقوقهم الموروثة فبذلوا كل مرتخص وغالٍ حتى صرفوا فكر الامبراطورة عن هذه الرسالة واقنعوها بابقاء الاستعباد بخارتهم على ذلك وفاتتهم لانها ضربت الرق على اكثر من مئة وخمسين الفاً من الفلاحين الذين كانوا في املاكها باعطائها اياهم لبعض خواصها كما تقدم. امرت ان لا تسمع للفلاحين شكوى على اسيادهم واباحت للاسياد ان ينفوا فلاحيهم الى سيبيريا فنفضت بعملها هذا ما بنتهُ اولاً من جهة اولئك المساكين وابدت قول المتنبي حيث قال

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفَّة فلعلة لا يظلمُ

الاَّ ان اصلاحاتها الاخرى بقيت نقيَّة الصحيفة كأنها نظرت الى الفلاحين غير نظرها الى سائر الناس فضربت على ايدي المرتشين والمختصين والخوَنة الذين يؤتمنون على اموال الناس فيبتزونها. وقد جاء في احد اوامرها ما تعريبهُ « نرى ان من اهم واجباتنا والزمها ان نعلن لشعبنا اننا طالما سمعنا بمرارة النفس ورأينا الآن بالفعل الى اي درجة فشت الرشوة في البلاد حتى لم يبقَ منصب من مناصب الحكومة الاَّ والرشوة قد نفثت منهُ ذلك الامر الالهي الذي هو العدل. فاذا طلب احد منصباً في الحكومة لم ينلهُ الاَّ بالرشوة واذا اراد احد ان يحمي نفسهُ من وشايات الواشين لم يستطع ذلك الاَّ بالرشوة واذا اراد ان يشي بغيره ظلماً وعدواناً وبوقع بهِ استطاع ذلك بالرشوة. ولكم من قاضٍ صيَّر المحكمة التي يجب ان يحكم فيها بالعدل باسم الله القدير سوق تجارة مستعملاً منصبهُ لترويج القضاء وكسب الاموال مع انهُ منصَّب للعدل بين الناس من غير محاباة فتراهُ يبني بيتهُ بدلاً من ان يخدم الههُ ومملكتهُ وبلادهُ »

ثم رأت ان مراكز الولايات بعيدة عن اطرافها وكانت البلاد مقسومة الى خمس عشرة ولاية فقسمتها الى ٥٠ ولاية في كل ولاية منها من ثلثمئة الف نفس الى اربع مئة الف وقسمت كل ولاية الى اعمال في كل عمل منها عشرون الفاً الى ثلاثين الفاً. وولّت على كل ولاية والياً وجعلت لهُ وكيلاً وجعلت لكل ثلاث ولايات والياً عامًّا يشرف عليها واقامت في كل ولاية مجلساً للادارة وغرفة مالية للنظر في امر الضرائب والاملاك والمعادن والتعداد ومدرسة كلية ومستشفيات . وانشأت مجالس للقضاء في كل الولايات والمراكز لكنها جعلت بعضها للنظر في قضايا الخاصّة وبعضها في قضايا العامّة ولم تجعل للفلاحين مجلساً فاصبحوا محرومين من كل الحقوق المدنية فاذا ظلموا لم يستطيعوا ان يرفعوا ظلامتهم الى احد. وانشأت مجلس استئناف في عاصمة كل قسم من اقسام السلطنة تستأنف اليهِ الاحكام واخيراً محكمة نقض وابرام في مجلس الشيوخ

وانشأت جمعية للاشراف في كل ولاية وهي تنتخب رئيسها وموظفيها. ولما كانت قد الغت قانون بطرس الاكبر القاضي بتجنيد الاشراف كلهم امرت ان لا ينتخب لرئاسة هذه الجمعيات والتوظف فيها الاّ من كان قد نال رتبة عسكرية فاغرت الاشراف بالخدمة العسكرية من جديد

ومنحت التجار وسكان المدن امتيازات خصوصية منها ان ينتخبوا قضاتهم ويسنوا القوانين المختصة بهم ويكون لهم شيء من الاستقلال الاداري. وقسمت التجار الى ثلاث فرق وجعلت من الفرقة الاولى كل تاجر لا يقل رأس مالهِ عن عشرة الاف روبل (١٥٠٠ جنيه) ومن الثانية كل تاجر لا يقل رأس مالهِ عن الف روبل . ومن الثالثة كل تاجر رأس مالهِ اكثر من خمس مئة روبل. ومن سواهم سكان المدن. ومنعت ما يسمّى بحماية التجارة خلافاً لما فعلهُ بطرس الاكبر اي انها لم تضرب على الواردات مكوساً فادحة لكي يقل دخولها الى البلاد ويكتفي السكان بمصنوعات بلادهم وحاصلاتها. ثم انشئت مدرسة المعارف ومدرسة الصنائع ومدرسة التجارة

واستدعت الناس من كل الاقطار لتعمير الاراضي الخصيبة الخالية من السكان ومدتهم بالمال من غير ربا لكي يوفوهُ في عشر سنوات وعفتهم من كل الضرائب ثلاثين سنة فوفدوا على روسيا واكثرهم من الالمان . وجعلت بلادها ملجأ للمضطهدين لاجل دينهم وانزلت في ولاية سرتوف اثني عشر الف عائلة وقد كثر نسلهم هناك وكانوا لا يزالون يتكلمون اللسان الالماني الى عهد قريب. و بلغ عدد الذين لبوا دعوتها ونزلوا روسيا حتى سنة ١٧٧١ مئة

وعشر بين الفاً ومصّرت نحو مئتي مدينة وسميت بعض هذه المدن باسمها مثل ايكاترينبرج وايكاترينوسلاف

وكان بطرس الاول وبطرس الثالث قد حاولا نقل اوقاف الكنائس والاديرة الى الحكومة فلم ينجحا و بلغ عدد الفلاحين العبيد في هذه الاوقاف نحو مليون نفس فكان في اوقاف دير مارسرجيوس في ثروانسا مئة وعشرون الفاً من هؤلاء الفلاحين المستعبدين وفي اوقاف دير مار كيرلس خمسة وثلاثون الفاً . وكان رؤساء الاديرة مثل ملوك مستقلين في ملكهم . فانشأت مجلساً مؤلفاً من رجال الكنيسة ورجال الحكومة وسمّتهُ ادارة الاوقاف كلها فصار يجمع ريعها وينفق منهُ على الاديرة والكنائس وما بقي من الريع ينفق على انشاء المدارس الدينية والمستشفيات وملاجىء العجزة

وكتبت الى ڤولتير عن اللجنة التي اقامتها لسن القوانين تقول « لا بد وان تسرّ اذ ترى في هذه اللجنة رجلاً ارثوذكسياً جالساً بين رجل مسلم ورجل معطل والثلاثة مصغون الى كلام رجل وثني والاربعة يتذاكرون في كيف يضعون القوانين الصالحة للجميع » . فاطلقت الحرية الدينية في بلادها اطلاقاً تاماً وسمحت للجزويت ان يقيموا في بلادها حين الغى ڤنمتهم البابا اكليمنضس الرابع عشر وسمحت لبنار القولنا ببناء مساجدهم

وزاد سكان روسيا في عهدها فبلغوا اربعين مليوناً بما نزح اليها من البلدان الاخرى وبما اتخذتهُ من الوسائل لمنع الاوبئة وتقليل وفيات الاطفال . واغرت الشبان بدرس الطب واستدعت الاطباء من الممالك الاخرى وانشأت مدرسة للصيدلة وعملاً لعمل الآلات الجراحية وادخلت التطعيم الواقي من الجدري في بلادها وكان اول من تطعم هي وابنها فاهدى اليها مجلس الشيوخ اثني عشر وساماً ذهبياً تذكاراً لذلك ونقش في دار المجلس في موسكو عبارة معناها انها خاطرت بنفسها لكي تحيي شعبها . والذي طعمها طبيب انكليزي اسمهُ دمسدايل فاعطتهُ عشرة آلاف جنيه ورتبة بارون وقطعت لهُ خمس مئة جنيه راتباً سنوياً . والولد الذي اخذ منهُ الطعم لتطعيمها اعطي لقب شرف يتوارثهُ نسلهُ وكان ذلك وقتما امات الجدري الملك لويس الخامس عشر واولاد ملك اسبانيا . وقد كتبت الى ڤولتير في هذا الصدد تقول « من الغريب انهُ تطعم عندي في شهر واحد اكثر مما تطعّم في فينا في سنة »

وكان اكثر اهتمامها في تعليم الشعب ونشر المعارف بين الطبقة العليا والوسطى . قالت تخاطب ايفان تيسكي « ان التغلّب على الناس وجعلهم يتعلمون ويحيون حياة جديدة عمل شاق

يقتضي تعباً لا يوصف لا تجني ثماره الاّ في زمن خلفائنا ». وكان ايفان تيسكي من النوادر الذين يضحون انفسهم لخدمة ابناء نوعهم . هذّب مواهبهُ الطبيعية وقواها بالدرس في جامعات اوربا ورأى انهُ لا يصلح الاّ الروسيون لتعليم اولاد الروسيين لانهُ يصعب على الاجنبي ان يعرف ما نفوس التلامذة الروسيين مما هو عادة او خلق او تديّن ولكن الزمن الذي تستغني فيهِ روسيا عن الاساتذة الاجانب لم يكن قد حان . فانشأ المدارس الابتدائية في البلاد كلها والثانوية في المدن الكبيرة . واهتمت الملكة بتعليم النساء فجمعت اربع مئة وثمانين صبيةً في مدرسة سمولنا والقت ادارتها الى سيدة فرنسوية اسمها مدام لافون وكتبت الى فولتير عن اولئك الصبيات تقول « انا نود ان لا يصرن من ذوات الفنج والدلال ولا من المترهبات المبتلات » وكنَّ يتعلمنَ اللغة الفرنسوية وغيرها من اللغات الاوربية مع بعض العلوم التكميلية . وانشأت داراً كبيرة للقطاء في موسكو اجتمع فيها في عهدها اربعون الف لقيطة وكانت تحرر كل فلاح من العبيد يتزوج واحدة منهنَّ . ورأى نبوليون هذه الدار لما دخل موسكو فاعجب بها اي اعجاب

وكثر الاهتمام باللغة الفرنسوية وآدابها في عهدها فترجم الكتاب الروسيون مؤلفات الكتّاب الفرنسويين والفوا على منوالها نثراً ونظماً وجعل عظماء روسيا وادباؤها يلعنون بمراسلة ادباء فرنسا فقوي فيهم حب التسامح الديني والترفّع الادبي والانس والدعة والميل الى معاملة الناس كلهم بالمساواة ثم لما رأوا ما آلت اليهِ الحرية الفرنسوية في زمن الثورة ذعروا ونكبوا عنها ولكنهم لم يعودوا الى ما كانوا عليهِ من خشونة الطباع

وكانت الامبراطورة اشد رغبة من شعبها في مجاراة الفرنسويين ومراسلة علمائهم وادبائهم وترجمة كتبهم الى الروسية ومساعدتهم بالمال ومن هذا القبيل ابتياعها لمكتبة ديدرو وابقاؤها في بيتهِ وجعلهُ حافظاً لها . حتى ان الكتب التي كانت الحكومة الفرنسوية تمنع نشرها في بلادها او تحجمها وتحرقها اذا طبعت فيها كانت تبيح نشرها في روسيا . وجاءت بالنخات فلكونه صديق ديدرو الى بطرس برج ليصنع تمثال بطرس الاكبر فسكهُ راكباً على جواد وقد اطلق يديهِ للريح وداس بقدميهِ على افعى الحسد واوقفهُ على صخرة كبيرة عشية تمثل المصاعب التي قامت في وجه ذلك الملك العظيم فتغلّب عليها

وكانت اكثر مراسلاتها مع فولتير ابتدأت مراسلهُ سنة ١٧٦٣ واستمرت الى حين وفاتهِ سنة ١٧٧٨ . وكانت تخبرهُ باعمالها كلها وما تجريهِ من الاصلاح في بلادها وتنفق على الذين يودُّ الانفاق عليهم

وكانت محبة للفنون الجميلة فزينت عاصمتها بافخر الصور الايطالية والفلمنكية وابتاعت في سنة واحدة صوراً بمليون روبل . وكان لها شأن في الآداب الروسية فالّفت كتاباً لتعليم حفيديها اسكندر وقسطنطين وقصصاً من التاريخ الروسي . و يظهر من المقدمات التي كانت تكتبها للقوانين التي سُنّت في عهدها ومن مراسلاتها بالروسية والفرنسوية والالمانية مع وزرائها وولاتها واصدقائها في فرنسا والمانيا انها كانت كثيرة الاشتغال وعلى جانب كبير من المهارة في فنون الادب . وانشأت روايات تمثيلية كثيرة حقّرت بها الرياء والبخل وكراهة التعليم واستعمال الكلمات الفرنسوية ودسائس الاشراف واسراف الروسيين وهم مسافرون في اوربا وكثيراً من العادات الضارة التي كانت متبعة حينئذٍ . وكتبت اكثر رواياتها التمثيلية بالفرنسوية وكتبت بها ايضاً ترجمة حياتها

وانشأت الاكاديمية الروسية على مثال اكاديمية فرنسا فوضعت هذه الاكاديمية قواعد التهجئة والصرف والنحو والعروض للغة الروسية وانشأت قاموساً لها في ست مجلدات وكتبت الامبراطورة تقريظاً للمجلد الاول منهُ

وقرّبت العلماء والادباء الروسيين وانعمت عليهم النعم فتبارزوا في تأليف الكتب والروايات آخذين مأخذ الادباء الفرنسويين كفولتير وموليه ولافونتين ونظم بعضهم قصيدة دينية ادبية بليغة جدّاً فكتبتها امبراطور الصين بحروف من ذهب وعلقتها في احد هياكل الصين . وحرّر نوفيكوف جريدة موسكو فبلغ عدد المشتركين فيها اربعة آلاف وهو عدد كبير جدّاً في ذلك العهد . و بلغ عدد المؤلفات الادبية والعلمية التي انشئت في عصرها مبلغاً كبيراً جدّاً وكانت في كل فن ومطلب

ولم يقتصر رجالها على فنون الادب بل طرقوا المواضيع العلمية السامية فرصد بلاس عبور الزهرة على قرص الشمس وكان قد جعل رئيساً لاكاديمية العلوم وعمره ثلاثون سنة وساح في القرم وسيبيريا وتخوم الصين ووصف ما رآهُ فيها

ولما كادت الثورة تقع في فرنسا كانت الحكومة الفرنسوية والحكومة الروسية اتخذا كرانَ في عقد محالفة رباعية تشمل روسيا والنمسا وفرنسا واسبانيا لمنع تفوّق انكلترا البحري وتوسّع بروسيا البري ولكن لما نشبت الثورة وهُدم البستيل رأت الامبراطورة ان الاعتماد على فرنسا صار كالاعتماد على لصبة مرضوضة ثم لما قتل الثوار الملك لويس السادس عشر جزعت اشد الجزع ويقال انها مرضت من جراء ذلك وامرت ان يطرح تمثال فولتير و يراقب كل الروسيين المتهمين بحرية الافكار ونفت الى سيبيريا مؤلف الرحلة من بطرسبرج الى موسكو لانهُ

انتقد فيها استعباد الفلاحين وقبضت على توثيكوف وسجنته واقفلت مطبعته وطردت السفير الفرنسوي ولم تعترف بالجمهورية الفرنسوية وقطعت العلاقات السياسية مع فرنسا ومنعت نشر الراية الفرنسوية في مرافىء بلادها ونفت كل الفرنسويين الذين ابوا ان يحلفوا يمين الطاعة للملكة ورحبت بالمهاجرين الى بلادها الهاربين من الثورة . وحثت الانكليز على مساعدة كونت ارتواز ليزحف على فرنسا واغرت النمسا وبروسيا بمقاومة الثورة ولكنها لم تشارك هذه الدول في ذلك بالقوة بل اظهرت انها تريد إشغالها بامور فرنسا لكي تتفرغ هي لمحاربة البولنديين والعثمانيين والفرس فافادت الثورة الفرنسوية وهي تقصد الاضرار بها لانها جعلت انكلترا والنمسا وبروسيا تقضي عمًا هو جار في فرنسا وتهتم بما هو جار على حدود روسيا . ثم وافاها القدر المحتوم في السابع من توفمبر سنة ١٧٩٦ وهي في السابعة والستين من عمرها

اليهود في فرنسا

يرى بعض افراد الامة الاسرائيلية ان تسميتهم باليهود حطة من شأنهم ويفضلون ان يسموا بالاسرائيليين آخذين في ذلك مأخذ يهود فرنسا . لكن علماءهم وادباءهم لا يرون هذا الرأي ولم يقولوا به في ما نعلم من قديم الزمان الى الآن بل سموا انفسهم يهوداً في كل كتبهم ورسائلهم ومع ذلك سنعتمد على تسميتهم بالاسرائيليين في ما نكتبهُ نحن في هذه المقالة لان جمهور المقيمين منهم في هذا القطر يفضلون هذا الاسم ولو كانت كلمة يهود ادل على المعنى المراد كما يعلم المطلعون على التوراة فان اسرائيل خصَّ بالاسباط العشرة التي تفرقت في السبي الاول ولا يعلم اين مقرها الآن والمرجح ان اليهود الحاليين ليسوا منها بل من سبطي يهوذا وبنيامين

وغرضنا من نشر هذه السطور ان يرى الشرقيون ان فريقاً منهم وهم الاسرائيليون الذين هاجروا الى اوربا وسكنوا فرنسا موضعة العلوم والفنون ووسطة عقد الحضارة والعمران قد جاروا الفرنسويين او فاقوهم في كل المطالب . فلا ندري كيف يزعم الاوربيون بعد ذلك أن العقل الشرقي دون العقل الغربي وانهُ اذا تناظر الشرقي والغربي وتساوت وسائط الاثنين كان السبق للغربي على الشرقي . ومعتمدنا في الجزء الاول من هذه المقالة على كاتب فرنسوي مشهور بين قومهِ اسمهُ ايجين تاثربه قال ما خلاصتهُ